الفصل الأول

إنسان العصر السوفييتي

كان فوز فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين، وإحرازه تقدمًا في ساحة معركة متداعية، أشبه ببركان بجانب نهر النيفا، على ما يقرب ثلاثين ميلًا من لينينجراد، يكاد ينفجر، وقد بدت أوامره انتحارية، وكان عليه أن يستطلع المواقف الألمانية، إذا كان ذلك ممكنًا، ويأسر جنديًّا لاستجوابه.

كان ذلك يوم 17 من نوفمبر/تشرين الثاني 1941م[1]، وكان يومًا شديد البرودة، وجيش الاتحاد السوفييتي الذي تعرض لحالة إذلال، يقاتل يائسًا ليتجنب تدميره التام على يد ألمانيا النازية. آخر الدبابات الاحتياط في المدينة كانت قد عبرت نهر نيفا قبل أسبوع، وقادة بوتين كانوا يصدرون الأوامر لاختراق مواقع معززةٍ دفاعيًّا على نحو كبير من خلال 54000 من المشاة الألمان[2]، ثم لم يكن هناك خيار سوى الانصياع.

اقترب هو وجندي آخر من حفرة بجانب خنادق على طول الجبهة الأمامية دمرتها القذائف وتلطخت بالدماء، وإذا بجندي ألماني يظهر فجأة، فذهل الجنود الثلاثة وجمدوا للحظة، لم يتحرك خلالها ساكن، ثم كان رد فعل الجندي الألماني أسبق إذ نزع فتيل أمان قنبلة يدوية وقذف بها، فسقطت قرب بوتين، فقُتل رفيقه واستقرت شظاياها في ساقيه، أما الجندي الألماني ففر هاربًا، تاركًا بوتين للميت. «الحياة مجرد شيء بسيط حقًّا»، يقول الرجل الذي سرد في وقت لاحق القصة بعد عقود من زمن الواقعة، بفرادتها العجيبة[3].

كان بوتين- ابن الثلاثين عامًا حينها- يستلقي جريحًا على جسر في الضفة الشرقية لنهر نيفا، وكان قادة الجيش الأحمر قد دفعوا بالقوات المتدفقة خلال النهر على أمل كسر الحصار حول لينينجراد الذي بدأ قبل شهرين عندما استولى الألمان على شليسلبورغ، لكن القلعة القديمة عند مصب نهر نيفا لم تصمد، وخابت كل جهودهم.

كان الألمان قد فرضوا حصارًا استمر 872 يومًا، وقتلوا مليون مدني بالقصف والتجويع، أو المرض، وقتها «قرر الفوهرر القضاء على مدينة بطرسبورج، ومسحها من على وجه الأرض»، وكان هذا هو القرار السري الألماني الذي كُشف عنه في 29 سبتمبر/ أيلول، ولن يكون بعدها الاستسلام مقبولًا، وسوف تكون الغارات الجوية والقصف المدفعي أداة دمار المدينة، يرافقها التجويع؛ لأن «إطعام السكان يجب ألَّا يكون على يدينا، بل ولا يمكن أن يكون»[4]. لم يحدث من قبل أن عانت مدينة في العصر الحديث من مثل ذلك الحصار.

«هل هذه هي نهاية خسائركم؟» بتلك الكلمات أبرق جوزيف ستالين بشراسة للمدافعين عن المدينة بعد يوم من بدء الحصار، وتابع: «لعل لديكم حقًّا قرارًا بالتخلي عن لينينجراد؟»، ووقع على البرقية التي كتبها كامل القيادة السوفييتية، ومن بينهم فياتشيسلاف مولوتوف، الذي وقَّع في عام 1939م على معاهدة عدم الاعتداء سيئة السمعة مع نظيره النازي، يواكيم فون ريبنتروب، الذي نقض المعاهدة الآن[5]. لم تكن هذه بأي حال من الأحوال نهاية الخسائر، فقد تزامن سقوط شليسلبورغ مع غارات جوية شرسة على لينينجراد نفسها، أشعل بعض حممها المستودع الرئيس للمواد الغذائية في المدينة، وكانت القوات السوفييتية التي تدافع عن المدينة في حالة من الفوضى، كما هي حالتها في كل مكان في الاتحاد السوفييتي.

كانت عملية بربروسا هي الغزو النازي الذي بدأ يوم 22 من يونيو/حزيران 1941م، وسحق الدفاعات السوفييتية على طول جبهة ألف ميل، من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، حتى بدت موسكو نفسها تواجه خطر السقوط. لكن ستالين لم يفكر قطُّ في استسلام لينينجراد، فأوفد رئيس هيئة الأركان العامة، جيورجي جوكوف، لدعم دفاعات المدينة، وهو ما فعله بوحشية

كبيرة؛ ففي ليلة 19 من سبتمبر/أيلول- بناء على أوامر جوكوف- شنت القوات السوفييتية الهجوم الأول بطول 600 متر عبر نهر نيفا لكسر الحصار، ولكن صَدَّتها قوة نارية ألمانية ساحقة. وفي أكتوبر/تشرين الأول، حاولوا مرة أخرى، وألقوا بالشعبة السادسة والثمانين في أتون المعركة، التي كانت تضم وحدة بوتين (الفوج 330) من حَمَلة البنادق الذين بنوا جسر العبور على الضفة الشرقية لنهر نيفا، الذي أصبح معروفًا- بسبب حجمه- باسم **نيفسكي بياتاتشوك**، من كلمة لعملة الكوبيك المكونة من خمسة كوبيكات أو قطعة صغيرة.

لم تكد ساحة المعركة- في أكبر اتساع لها- تبلغ ميلًا عرضًا، ونصف ميل أو أقلَّ طولًا، ومن ثم فقد كانت بالنسبة إلى الجنود المقدَّر لهم القتال هناك، مصيدةً وحشية لموت بلا معنى.

كان بوتين عاملًا غير متعلم، وأحد أربعة أبناء لسبيريدون بوتين، الطباخ الذي كان يعمل ذات مرة في فندق أستوريا المشهور قبل الثورة في المدينة. سبيريدون، على الرغم أنه من مؤيدي البلاشفة، كان قد فرَّ من العاصمة خلال الحرب الأهلية والمجاعة التي تلت ثورة أكتوبر/تشرين الأول في عام 1917م، واستقر في قرية أجداده (بومينوفو) في التلال غربي موسكو، وبعد ذلك انتقل إلى المدينة نفسها، حيث عمل طباخًا لأرملة فلاديمير لينين، ناديا كروبسكايا، في مسكنها الرسمي الريفي السوفييتي في منطقة جوركي على أطراف موسكو[6]، ثم عمل بعد وفاتها، في عام 1939م، لدى لجنة الحزب الشيوعي في موسكو، وقيل إنه طبخ مرة واحدة لجريجوري راسبوتين في أستوريا، وأحيانًا لستالين عندما زار أرملة لينين، في بداية تقليد عائلي من العبودية للنخبة السياسية.

قربُه من السلطة لم ينفعه شيئًا في حماية أبنائه من النازيين؛ فالأمة كلها كانت تقاتل من أجل البقاء، وكان فلاديمير بوتين قد اكتسب حقًّا خبرة عندما غزا النازيون الاتحاد السوفييتي في يونيو/حزيران عام 1941م، وكان في الثلاثينيات من القرن الماضي أحد

طواقم الغواصات، قبل أن يستقر غير بعيد عن لينينجراد، في قرية بيترودفوريتس، حيث كان بطرس الأكبر قد بنى قصره على خليج فنلندا.

في أيام الفوضى التي أعقبت الغزو، سارع- مثل كثير من المواطنين- للتطوع للدفاع عن الوطن، فعُيِّن في البداية في مفرزة التدمير الخاصة لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية، أو (NKVD)، وكالة الشرطة السرية اللعينة، التي أصبحت في وقت لاحق جهاز الاستخبارات المعروف باسم الكي جي بي. أنشئت الـ (NKVD 2222) من هذه المفارز مشاغلة النازيين وراء الجبهة، وكانت في حينها تتقدم بسرعة[7]، وكانت إحدى المهمات التي ينفذها بوتين للمرة الأولى في الحرب كارثيةً؛ فقد هبط هو وسبعة وعشرون من مقاتلي الحزب الآخرين بالمظلات وراء قوات الألمان التي كانت تتقدم نحو لينينجراد، بالقرب من بلدة كينغيسيب، وكان حينها قريبًا من الحدود مع أستونيا، التي احتلها الاتحاد السوفييتي قبل سنة واحدة، جنبًا إلى جنب مع لاتفيا وليتوانيا، في جزء من الاتفاق سيئ السمعة مع هتلر قبل الحرب. تمكنت مفرزة بوتين من تفجير أحد مستودعات الأسلحة، كما تقول الرواية، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم من دون ذخيرة وتموين، فجلب لهم السكان المحليون في أستونيا الطعام، ولكنهم أيضًا وشوا بهم عند الألمان، الذين استقبلهم كثيرون في دول البلطيق- في البداية على الأقل- على أنهم محرِّرون لهم من الاحتلال السوفييتي، فأطبقت القوات الألمانية على الوحدة من جميع الاتجاهات، وشرعوا يطلقون النار عليهم وهم يتسابقون على طول طريق العودة إلى خطوط الاتحاد السوفييتي. انفصل بوتين عن المجموعة، مطاردًا من قبل الألمان مع الكلاب، واختبأ في المستنقعات، وغاص تحت الماء، وأخذ يتنفس عن طريق قصبة إلى أن تجاوزته الدورية الألمانية[8]. أما كيف تدبر أمر العودة سالمًا بدقة فقد ظل أمرًا غامضًا، ولكنه هو فقط وثلاثةً آخرين من المفرزة نجوا من الغارة.

استجوبته الـ (NKVD) بعد هروبه، لكنه نجح في تجنب شبهة الفرار أو الجبن، وسرعان ما أعيد إلى الجبهة[9]، قد تكون الشجاعة وحدها ما ساقته لفعل ذلك، وربما يكون الخوف؛ إذ

كان ستالين قد أصدر القرار رقم 270، في 16 أغسطس/آب، بحق الجنود الفارين، بتنفيذ حكم الإعدام فيهم وباعتقال أفراد أسرهم.

داخل لينينجراد تدهورت الأوضاع بسرعة، على الرغم من الجهود التي بذلتها السلطات للحفاظ على الشعور بالحياة الطبيعية؛ فقد فتحت المدارس- كما هو الحال دائمًا- في 1 سبتمبر/أيلول، ولكن بعد ثلاثة أيام سقطت القذائف الألمانية الأولى داخل المدينة[10]، ومع اكتمال الحصار أصبحت المدينة تحت رحمة الهجمات الجوية المنتظمة، ومن ثم كثفت السلطات تقنين المواد الغذائية، فأخذت حصص التموين بالانخفاض تدريجيًّا، ما أدى إلى حالة من اليأس، والجوع، وأخيرًا الموت.

بينما كان فلاديمير بوتين خارج المدينة يقاتل، كانت زوجته ماريا محاصرة مع طفلها الرضيع داخل المدينة. ولد كلٌّ من فلاديمير وماريا في عام 1911م، وكانا من أطفال القرن العشرين المضطرب في روسيا، الذي عانى من الحرب العالمية الأولى، والثورة البلشفية، والحرب الأهلية التي أعقبت ذلك. التقيا أول مرة في بومينوفو، التي كان والده قد انتقل إليها بعد الثورة، وتزوجا في عام 1928م، عندما كانا في سن السابعة عشرة فقط، وانتقلا إلى لينينجراد وهما متزوجان حديثًا، ليستقرا في بيترودفوريتس مع أقارب زوجته في عام 1932م. وبعد تجنيد بوتين في البحرية أصبح لديهما صبي يدعى أوليغ، لكنه توفي وهو رضيع، ثم قبل عام من بداية الحرب وُلِد الابن الثاني، فيكتور.

نجحت ماريا وفيكتور بصعوبة في الخروج من المناطق التي تعرضت للاحتلال النازي وسيطرته، وكانت رفضت في البداية مغادرة بيترودفوريتس، ولكن عندما أحكم الألمان السيطرة عليها أجبرها شقيقها، إيفان شيلوموف، على الخروج، إذ كان في الخدمة نقيبًا أول في مقر أسطول بحر البلطيق، ومن ثَم كان له سلطة عسكرية في الجيش، وامتيازات لا تزال موجودة في مدينة تحت الحصار[11]، وقد استطاع الكابتن شيلوموف إنقاذهما تحت

وابل من (إطلاق النار والقنابل)، ليستقر بهما الحال في مدينة كانت قد أصبحت محفوفة بالأخطار[12].

مع حلول فصل الشتاء أصبحت الأوضاع وخيمة ومصيرية، فقد كان شتاء تلك السنة باردًا وأكثر مرارة من المعتاد. تنقلت ماريا وفيكتور بين عشرات الملاجئ التي فتحتها السلطات لإيواء اللاجئين المتدفقين من الضواحي المحتلة، وساعدها شقيقها حتى بحصصه هو من الطعام، ولكن صحتها مع ذلك تدهورت. لاحقًا وُضعت جثتها مع جثث المارة المجمدة التي بدأت تتراكم في الشوارع تمهيدًا لجمعها، وكان زوجها آنذاك على الجبهة، وفي تلك المشرحة المفتوحة سُمعت- بطريقة ما- وهي تشتكي وتتأوه، وهو ما جذب إليها الانتباه، أما متى حدث ذلك بالضبط فغير معروف[13].

مع ذلك فقد بدا أن بقاء فلاديمير على قيد الحياة أقل احتمالًا؛ إذ كان يرقد جريحًا بجانب نهر نيفا منذ عدة ساعات قبل أن تعثر عليه القوات السوفييتية الأخرى التي نقلته إلى مقر الفوج على ضفة النهر، وبذلك كان أحد الذين لم يلقوا حتفهم من بين أكثر من 300 ألف جندي قتلوا في معركة بياتاتشوك، ثم أنقذه جار قديم له وجده ملقى على حمَّالة في مستشفى ميداني بدائي، فحمله على كتفه عبر النهر المتجمد إلى المستشفى على الجانب الآخر.

كما اتضح فيما بعد، فقد كانت إصابة بوتين هي التي أنقذت حياته، فوحدته (فوج الرماة 330)، قاتلت لكونها نقطة عبور طيلة فصل شتاء 1941- 1942م في معركة فاقت في نطاقها والمذابح التي وقعت فيها، الحصار الرهيب الذي ستتعرض له ستالينغراد في العام المقبل، وهو ما سمي بـ(مفرمة اللحم الوحشية)[14]؛ فالقوات هناك تحملت قصفًا لا هوادة فيه من قبل الألمان، وأصبحت ضفة النهر متصحرة وميتة ولا شيء من شأنه أن ينمو فيها حتى سنوات عدَّة.

عبرت أفواج جديدة من المجندين الجدد نهر نيفا لتحل محل الذين قتلوا أو جرحوا، بنسبة مذهلة تقدر بالمئات يوميًّا، حتى ربيع عام 1942م، عندما انهارت نقطة عبور الجسر،

واستعاد الألمان الأرض في يوم 27 من أبريل/نيسان، فقُضي على فوج الرماة 330 تمامًا، باستثناء ضابط برتبة رائد هو ألكسندر سوكولوف، الذي تمكن من السباحة إلى بر الأمان، على الرغم من الجروح الخطرة التي أصيب بها[15].

كانت تلك واحدة من أعنف المعارك المميتة في الحرب كلها، وكانت بالنسبة إلى قيادات الجيش السوفييتي حماقة أودت بحياة عشرات الآلاف من الجنود، وهو أمر ربما أطال مدة الحصار بدلًا من تقصيرها[16].

قضى بوتين أشهرًا في المستشفى العسكري يتعافى في مدينة كانت تموت من حوله، وفي الوقت الذي قُطع فيه الطريق الوحيد للخروج من المدينة، ظل ثلاثة ملايين من المدنيين والجنود محاصرين. وقد وجدت ماريا، التي رفضت الخروج عندما كان ذلك لا يزال ممكنًا، في نهاية المطاف زوجها في المستشفى، الذي راح- مخالفًا للنظام- يتقاسم حصته من الطعام في المشفى معها، ويخفي حصته من المواد الغذائية عن أعين الممرضين والممرضات، إلى أن لاحظ ذلك الطبيب، وأوقف زيارات ماريا اليومية له بعض الوقت[17].

استسلمت المدينة بعد أن انهارت المقاومة الأولية أمام الدمار والتجويع، وما هو أسوأ من ذلك؛ فالخدمات الأساسية تدهورت جنبًا إلى جنب مع الإمدادات الغذائية، وتناثرت الجثث التي لم تجمع في أكوام في الشوارع. وفي يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط 1942م قتل أكثر من مئة ألف شخص في كل شهر[18]. وكان الاتصال الوحيد مع الأراضي غير المحتلة من قبل الألمان طريقًا مؤقتة تسمى (طريق الحياة)، وهي سلسلة من الطرق غير المستقرة فوق المياه المجمدة لبحيرة لادوغا التي كانت توفر الحد الأدنى من الإغاثة للمدينة.

ظلت الأرض محاصرة حتى يناير/كانون الثاني 1943م، عندما اخترق الجيش السوفييتي الطوق إلى الشرق، واستغرق الأمر سنة أخرى لتحرير كامل المدينة من قبضة النازية، وبدء مسيرة لا هوادة فيها إلى برلين.

أما فلاديمير وماريا فقد نجيا بطريقة ما، على الرغم من إصاباته التي جعلته يعرج بألم بقية حياته. وفي أبريل/نيسان 1942م أُطلق سراحه من المستشفى، وأُرسل للعمل في مصنع للأسلحة لإنتاج قذائف المدفعية المضادة للدبابات[19]. وأما ابنهما (فيكتور) فقد توفي بالدفتيريا في يونيو/حزيران 1942م ودفن في مقبرة جماعية في مقبرة بسكاريوفسكي، ضمت 470 ألفًا من المدنيين والجنود الآخرين، ولم يعرف فلاديمير ولا ماريا أين دفن بالضبط، ومن الواضح أنهما لم يبذلا جهدًا كبيرًا ليعرفا، ولم يتحدثا أبدًا عن ذلك بالتفصيل لاحقًا[20].

كانت حصيلة عدد القتلى في الحرب من المدنيين هائلة، وكان من بينهم والدة ماريا، إليزابيث شيلوموفا، التي ماتت على الخطوط الأمامية غربي موسكو، في أكتوبر/تشرين الأول 1941م، ولم يكن واضحًا هل القذيفة السوفييتية هي التي قتلتها أو القذيفة الألمانية، وإذا كان شقيق ماريا إيفان قد نجا من الموت، فإن شقيقًا آخر لها، اسمه **بيوتر**، دانته محكمة عسكرية في الجبهة في الأيام الأولى من الحرب، بسبب التقصير في أداء الواجب، ولم يُعرف مصيره أبدًا. وتوفي اثنان من أشقاء فلاديمير أيضًا خلال الحرب: ميخائيل في يوليو/تموز 1942م، وأيضًا في أوضاع غامضة، وألكسي على جبهة فورونيج في فبراير/شباط 1943م[21].

كانت هذه القصصُ من حكايات الحرب الوطنية العظمى قصصًا من البطولة والمعاناة التي شب على سماعها فلاديمير والابن الثالث لماريا، وكان من شأنها أن تترك أثرًا لا يمحى من ذاكرته طوال حياته. ومن (بعض نُتف) من الأحاديث التي سمعها مرارًا وتكرارًا على طاولة المطبخ في شقة مزدحمة في لينينجراد المدمرة، صاغ قصة العائلة، وهي قصة أعاد الزمن والذاكرة صياغتها؛ قصة قد يُشك في صحتها، وغير مكتملة. كانت عائلة بوتين من الناس البسطاء، ومن غير المرجح أنهم كانوا يعرفون كثيرًا عن الجوانب المظلمة من الحرب: حملة التطهير التي قادها ستالين ضد المشكوك في ولائهم في الإرهاب العظيم الذي حطم الجيش وأنهكه قبل الحرب، والتواطؤ مع خطط هتلر لغزو أوروبا، وتقسيم بولندا في عام

1939م، وضم دول البلطيق بالقوة، والدفاع الفوضوي في مواجهة غزو النازيين، والمخالفات الرسمية التي أسهمت في مجاعة لينينجراد، والفظائع الانتقامية من قبل القوات السوفييتية الزاحفة إلى برلين. وحتى ذلك الحين، وبعد وفاة ستالين في عام 1953م، كان الحديث عنها أو التحدث بأعلى من الهمس بما يسيء للدولة، يمثل خطرًا. كان النصر- ومساهمة بوتين المتواضعة فيه- ينبوعًا لا ينضب من الفخر. لكن ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ لم يفكر ذلك الصغير في الأخطاء التي ارتكبت، بل كان يفكر في شيء واحد فقط هو الفوز.

هذا الابن الثالث، فلاديمير فلاديميروفتش بوتين[22]، وُلِدَ في 7 أكتوبر/تشرين الأول عام 1952م، في مدينة كانت لا تزال تعاني من الحصار والحرمان، ومنهكة من الخوف؛ ذلك أن جنون العظمة عند ستالين، حتى في النصر، قاده إلى مرض الشك والقصاص، ومن ثَم ففي أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، تعرضت نخبة زمنِ الحرب في المدينة، سواء المدنيون أو العسكريون، لعملية تطهير عرفت باسم **قضية لينينجراد**؛ إذ ألقي القبض على عشرات من مسؤولي الحزب وأقاربهم، وسجنوا، أو نُفوا، أو قتلوا رميًا بالرصاص[23]. في حين أن المواطنين الموالين للدولة امتنعوا عن الحديث، إما بدافع الخوف أو التواطؤ على الجرائم التي ارتُكبت، حتى أحفاد رجل موثوق به بما فيه الكفاية لطهي الطعام لستالين في المناسبات. قليل من الناس الذين عاصروا ستالين، ولو مدة وجيزة، (حظوا بالسلامة)، هذا ما يتذكره فلاديمير بوتين في وقت لاحق؛ «وكان جدي واحدًا منهم»[24]، «ظل جدي حريصًا إلى حد ما في التحدث عن حياته الماضية، ووالداي، والناس عمومًا، لم يتحدثوا كثيرًا عن الماضي». كان والد فلاديمير من ذوي الياقات الزرقاء، صارمًا وقاسيًا ومخيفًا حتى للناس الذين عرفوه جيدًا، وتركت تجربته في الحرب- العرج الذي عانى بسببه طوال حياته والذي كان يزداد سوءًا في أيام البرد الشديد- أثرًا كبيرًا في حياة الابن.

بعد الحرب، استمر الأب يعمل في مصنع يوغوروف في ضاحية موسكوفسكي الذي كان يُصنِّع العربات للقطارات، وعندما صار عضوًا في الحزب الشيوعي أصبح ممثل الحزب في

المصنع؛ لما كان عليه من الدقة والإخلاص والانضباط، والأهم من ذلك كله الحذر. وقد أهَّله عمله أن يستحق غرفة يبلغ اتساعها 180 قدمًا مربعة، في الطابق الخامس من شقة متهالكة، كانت في يوم ما من القرن التاسع عشر مجمعًا سكنيًّا فاخرًا في شارع باسكوف، ليس بعيدًا عن الشارع الرئيس في لينينجراد، شارع نيفسكي بروسبكت، وقناة غريبويدوف.

في عام 1944م بعد الحرب كان على عائلة بوتين أن تشارك اثنتين من الأسر الأخرى في المكان الضيق، لتعيش فيه لأكثر من عقدين من الزمن. كانت الشقة بلا ماء ساخن، وبلا حوض للاستحمام، وكان الممر الذي لا نوافذ له يستخدم مطبخًا مشتركًا، مع موقد غازي واحد قبالة المغسلة، وكان المرحاض في خزانة ملصقة بالحائط مقابل الدرج، وأما التدفئة في الشقة فكانت تعتمد على موقد للحطب.

كان تعليم ماريا، مثل زوجها، محدودًا، وإذ ولدت فلاديمير في الحادية والأربعين من عمرها فقد بقيت كانت تشعر بالخجل، ولكنها بعد تلك المعاناة والخسائر التي مرت بها كانت تنظر إلى ابنها على أنه معجزة[25]، فكدحت في مختلف الأعمال الوضيعة؛ مثل تنظيف المباني، وغسل أنابيب الاختبار في المختبر، وإيصال الخبز؛ التي تمنحها مزيدًا من الوقت لتعتني به.

شغل زوجان مسنان غرفة واحدة في الشقة، وفي الغرفة الثانية سكنت عائلة يهودية متدينة، مع ابنتهما الكبيرة هافا. وقد أحبَّ فلاديمير- وهو الأصغر سنًّا والطفل الوحيد في المنزل المشترك- الزوجين المسنين كثيرًا، وكان يقضي كثيرًا من الوقت معهما، كما هو الحال مع والديه، حتى باتا جدَّيه البديلين، وكان ينادي المرأة بابا آنيا، التي كانت، مثل والدته، شديدة التدين.

سُمح للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، التي قمعها النظام السوفييتي، أن تعمل علنًا خلال الحرب للمساعدة في حشد الأمة، على الرغم من أنها ستُقمَع بشدة مرة أخرى بعد أن تسكت المدافع. ووفق ما سيروي فلاديمير لاحقًا، ففي 21 نوفمبر/تشرين الثاني، حين كان

عمره سبعة أسابيع فقط، حملته بابا آنيا وماريا من خلال ثلاثة مجمعات سكنية خلال البرد القارس إلى كاتدرائية التجلي، وهي مبنى أصفر من القرن الثامن عشر، بنيت على الطراز الكلاسيكي الجديد لعدد من كنائس المدينة؛ لتعميده سرًّا هناك[26]. ليس واضحًا هل كانت قد احتفظت بسر التعميد خوفًا من زوجها الصارم أو خوفًا من التوبيخ الرسمي، لكن ابنها قال في وقت لاحق إن ما جرى لم يظل سرًّا مثلما تمنت؛ لأن الأسرار في الاتحاد السوفييتي كانت قليلة.

كانت تأخذ الطفل معها إلى أماكن عملها في بعض الأحيان، لكنها أبقت الشقة خالية من أي خصوصية، ومن أي رموز أو إشارات تدل على ممارسة خارجية[27]، فضلًا عن أنها- كما هو واضح- لم تناقش معتقداتها معه حينذاك، وبالتأكيد ليس بعمق. وبعد أربعين سنة أعطته ماريا صليب المعمودية، وطلبت منه أن يباركه في كنيسة القيامة في القدس عندما زارها للمرة الأولى، ومن ثم فقد ظل الصبي يتمتع بأرضية إيمانية لا تفارقه. وعلى الرغم من العقيدة العلمانية الشيوعية التي التزم بها والده، فإنه لم يبد تفضيلًا لأي منهما، مع أن بعض من عرفوه أكدوا في سنوات لاحقة أن علاقته بالجيران اليهود غرست في شخصيته تسامحًا عالميًّا غير عادي، وازدراء لمحاربة السامية التي عانت منها الثقافة الروسية منذ مدة طويلة[28].

كان المبنى في باسكوف لين هو عالم فلاديمير بوتين في صباه؛ المعالم المذهبة لروسيا القيصرية- الأرميتاج، والأميرالية، وكاتدرائية بيتر وبول التي كانت قريبة ولكن أكثر قليلًا من المعالم الأثرية البعيدة الواقعة ضمن المشهد العام للمدينة. وكان في صباه سليل طبقة البروليتاريا، وليس سليل الطبقة المثقفة من السوفييت أو النخبة السياسية. لم يعِ الحرمان في طفولته إلا في وقت لاحق وبعد فوات الأوان؛ إذ يتذكر ذلك الدرج المحطَّم الذي يقود إلى الطابق الخامس، بثقوب نتنة، وإضاءة خافتة، يُشتم منها رائحة العرق والملفوف المغلي، في المبنى الذي كان يعج بالجرذان، التي يطاردها هو وأصدقاؤه بالعصي، وهي إحدى لعبهم،

ويتذكر حينما حُشر أحد الجرذان في نهاية أحد الممرات؛ «وفجأة حام حولي أحدهم وقذف بنفسه في وجهي، ففوجئت وارتعبت»[29].

كان صبيًّا مهملًا، فمن ذكرياته التي تعود إلى أحد أيام مايو/أيار لعام 1959م أو 1960م- وكان حينها في طفولته الأولى- أنه خرج مع بعض أقرانه في مغامرة، فأصابه الرعب من صخب (الركن الكبير) في شارع مایاكوفسكايا. وبعد سنوات قليلة، ركب هو وأصدقاؤه قطارًا إلى جزء غير معروف من المدينة بحثًا عن مغامرة، وكان الجو باردًا، ولم يكن لديهم شيء يقتاتون به، ومع ذلك أوقدوا نارًا ليدفئوا أنفسهم ولكنهم عادوا مكتئبين، ويومها ضربه بوتين الأب بحزام عقابًا له.

كان المبنى السكني يحيط بساحة داخلية ترتبط بساحة بناء مجاور ليكوِّنا حيِّزًا مهملًا خاليًا من الأشجار وكان أفضل قليلًا من الجزء السفلي من داخل المبنى، لكنه جذب إليه السكارى والبلطجية، والمدخنين ومتعاطي المخدرات، ومن يريد الهروب من همومه ومعاناته. بحساباته وحسابات أصدقائه، جعلت منه تلك الساحة، والمدرسة في وقت لاحق، صبيًّا خشنًا، شجاعًا، سرعان ما يدافع عن نفسه من أي ازدراء أو تهديدات، إذ يبدو أن صغر حجمه تسبب له غالبًا بالمضايقات.

كان والداه يخافان عليه، حتى إنهما منعاه- عندما كان شابًّا- من مغادرة الساحة دون إذن، ومن ثم فقد ترعرع في حماية مفرطة، على الرغم من أنه لم يكن يلقى محبة وعناقًا ظاهريًّا من والدين نجيا بأعجوبة، وعملا كل ما بوسعهما ليضمنا نجاة ولدهما أيضًا، «فلا قبلات هناك»، تذكرت فيرا جورفيتش، المدرِّسة التي أصبحت مقربة من الأسرة: «لم يكن هناك شيء من ذلك الحب الحمائمي في منزلهم»[30].

في 1 سبتمبر/أيلول 1960م بدأ فلاديمير الذهاب إلى المدرسة رقم 193، التي لا تبعد كثيرًا عن الشارع الذي يعيش فيه، وكان في سن الثامنة تقريبًا، ولفرط حذر ماريا لم ترسله إلى رياض الأطفال، ومن ثم فقد كان يفتقر إلى المهارة الاجتماعية التي يمكن أن يكتسبها

لو نشأ وحوله مزيد من الأطفال؛ فقد ظهر في اليوم الأول لا يحمل أي أزهار لأستاذه، كما تملي التقاليد، وإنما يحمل أصيصًا من النبات[31] في المدرسة، وكان طالبًا غير مبال، وفظًّا ومتسرعًا، وربما مُفسدًا قليلًا، حتى إن فيرا جورفيتش أسمته الدوامة؛ لأنه يسير في الصف ويدور في حلقة مفرغة، وكان عامل تخريب داخل الصف وخارجه[32]، وكان ينزع إلى التسكع مع طلاب أثَّروا فيه سلبيًّا، ومن بينهم اثنان من الإخوة الكبار يدعيان كوفشوف، كذلك قُبض عليه في المدرسة يحمل سكينًا، ووبِّخ ذات مرة من قبل لجنة الحزب لإهماله، وهددته بإرساله إلى دار الأيتام[33].

أبعده سلوكه في البداية خارج دائرة الرواد في منظمة شباب الحزب الشيوعي، التي تتطلب عضويتها إبداء قدر من الالتزام. وفي الصف الثالث كان واحدًا من الطلاب القلائل في الصف، البالغ عددهم 40 طالبًا، الذين لم ينتسبوا إلى المنظمة. وقد يكون والده الذي عمل وكيلًا للحزب، هو الوحيد الذي يمكن أن يشعر بالفزع لإخفاقه، وقد وصف فلاديمير لاحقًا ما فعله بالتمرد على والده وما يحيط به من نظام؛ قال: «كنت مشاغبًا ولم أكن رائدًا»[34]. فيرا جورفيتش، التي درَّسته في الصف الرابع، اشتكت في النهاية إلى والده بأن ابنه ذكي لكنه غير منظم ومهمل، وأضافت: «إنه لا يعمل بكامل طاقاته»، قالت هذا لفلاديمير الكبير في شقة باسكوف لين، التي وصفتها بأنها «باردة جدًّا، وفظيعة».

أجاب فلاديمير سبيريدونوفيتش: «حسنًا، ماذا يمكنني أن أفعل؟ أأقتله أم ماذا؟»[35]. مع ذلك وعد فلاديمير وماريا جورفيتش بلجم ابنهما. حاول والده إجباره على ممارسة الملاكمة، لكن سرعان ما أقلع عنها الصبي حين كسرت لَكمةٌ أنفه، وانصرف- بدلًا من ذلك- إلى الفنون القتالية، التي كانت- كما يبدو- ضد رغبات والديه، فمارس السامبو على النمط السوفييتي الذي هو خليط من الجودو والمصارعة، وكانت أكثر ملاءمة لصغر قامته «وطبيعته المشاكسة»[36]، وأصبح أحدُ مدربيه ذا تأثير حاسم في حياته.

عملت أناتولي راخلين في نادي ترود (نادي العمل)، ليس بعيدًا عن باسكوف لين، وكان بوتين عام 1965م في الصف الخامس حين انضم إليه. وكان على راخلين أن تطمئن أبوَي فلاديمير «أننا لا نعلِّم الأطفال أي شيء سيئ»[37].

الانضباط والصرامة في لعبة السامبو، والجودو في وقت لاحق، استحوذت على اهتمامات الصبي، حتى إنه لم يفكر في شيء غيرها، ويمكن القول إن فنون القتال غيَّرت حياته، وأتاحت له الوسائل لتأكيد ثقته بنفسه، ومواجهة الصبيان الأكثر خشونة منه، وكان يقول: «كانت أداة لأفرض نفسي في المجموعة»[38]، إضافة إلى أنها جلبت له مجموعة جديدة من الأصدقاء، خصوصًا الشقيقين أركادي وبوريس روتنبرغ، اللذين التصقا به طوال حياته. وقدمت له فنون القتال أيضًا العقيدة التي لم يجدها في الدين ولا في السياسة؛ فقد كان يعتقد أنها أكثر من مجرد رياضة؛ إنها فلسفة. قال ذات مرة: «الرياضة هي التي سحبتني من الشوارع، وحتى أكون صادقًا في قولي؛ فإن ساحة المنزل لم تكن البيئة المناسبة لطفل مثلي»[39].

قد يكون هذا سببًا في كثير من تحولاته، ولكن مزاعمه أنه قد عاش حياة الغابة تبدو أشبه بتبجح، فربما استحوذت عليه ذات مرة قذارة الساحة، واستضعاف شاغلي أهلها، لكنها غرست فيه أيضًا ازدراءه للشرب والتدخين، والكسل والفوضى. ومع ذلك، ما إن اكتشف حبه لفنون القتال حتى بات لديه تصميم فولاذي لتحقيق النجاح. ولأن (ترود) يتطلب درجات عالية لعضويته، فقد بذل مزيدًا من الجهود في المدرسة، وفي الصف السادس، وبذلك بدأت درجاته تتحسن.

قررت فيرا جورفيتش ورفاقه في المدرسة إلحاقه بالرواد، وفي وقت متأخر التمسوا من ممثل المدرسة الحصول على استثناء بحقه عن هفواته السابقة، فأقيم له حفل تعارف في أوليانوفكا، وهي قرية ريفية كانت تعرف سابقًا باسم **سابلينو**، عاشت بها شقيقة لينين ذات مرة[40]، وفي غضون أسابيع أصبح زعيم فرع الرواد في مدرسته، وكان هذا أول موضع قيادي

له. وفي الصف الثامن كان من بين الأوائل الذين اختيروا للانضمام إلى الكومسومول، وهي المنظمة الشبابية للحزب الشيوعي، فكانت نقطة انطلاق ضرورية إلى ما اكتشف بعدها أنه هو ما يبحث عنه ويطمح إليه.

في عام 1965م، في الذكرى العشرين للانتصار على النازية، ظهرت موجة جديدة من الحنين إلى الماضي والاحتفال الرسمي، وكانت إحدى أهم الروايات الشعبية لذلك الزمن الرواية التي تحكي قصة التجسس، وتحمل عنوان **الدرع والسيف**، وقد ظهرت أول مرة مسلسلًا في المجلة الأدبية زناميا (اللافتة)، الصادرة عن اتحاد الكتاب، وكان مؤلفها فاديم كوزينيكوف، الذي عمل مراسلًا حربيًّا لبرافدا، وقد قدمت تجربته للقصة بعدًا واقعيًّا، مع أنها تتفق تمامًا مع الشكل السردي للدعاية السوفييتية (كوزينيكوف، بصفته رئيسًا لاتحاد الكتاب، شارك في حظر الرواية الأكثر وصفًا واقعيًّا للحرب، الحياة والمصير لمؤلفها فاسيلي غروسمان). بطل الرواية، الرائد ألكسندر بيلوف، كان عميلًا سريًّا سوفييتيًّا، يدعي أنه ألماني من ألمانيا النازية قبل اندلاع الحرب الوطنية العظمى، وبعد أن يستعمل اسمًا مستعارًا هو **يوهان فايس**، يترقَّى في صفوف الأبهر (Abwehr)، ومنظمة الاستخبارات العسكرية النازية، وفيما بعد سكهوتزستفل، أو (SS). ويبدي فايس شجاعة في تلك المغامرة، وكان رواقيًّا عنيدًا جدًّا حتى حينما عُذب. وعلى الرغم من أن النازي الذي كان يخدمه على نحو ظاهري قد اشمأز منه، فإنه كان مجبرًا على تحمل التجربة لتخريب جهد العدو الألماني. كتب كوزينيكوف: «لم يعتقد يومًا أن الجزء الأكثر صعوبة من التعذيب في مهمته التي اختارها بنفسه هو هذا الانشطار في شخصيته ووعيه»، مع أنه كان في البداية مأسورًا بهذه اللعبة؛ لكونه يخلع جلده ويرتدي جلد شخص ما، ويتقمص أفكاره، ويسعد حين تتلاقى هذه الأفكار مع ما يمكن أن يتوقعه الناس من هذه الشخصية المصطنعة[41].

لم تكن شخصية من تأليف تولستوي بكل تأكيد، إنما كانت لصبي مراهق حساس، بل أكثر من هذا بكثير. وبعد ثلاث سنوات من نشره، أصبح الكتاب فيلمًا مدته ساعة، ولكنه من فئة خمسة نجوم، وكان الفضل في كتابة السناريو لكوزينيكوف. وكان الفيلم الأكثر شعبية

في الاتحاد السوفييتي في عام 1968م، وكان يُعرَض بالأبيض والأسود، حين أصبحت الخدمة السريَّة تعرف بـ(كي جي بي).

في ذلك الوقت كان فلاديمير بوتين قد بلغ السادسة عشرة تقريبًا من عمره، وقد سحره هذا الفيلم الذي شاهده هو وأصدقاؤه مرات عديدة، حتى إنه بعد مرور أكثر من أربعة عقود كان لا يزال يتذكر كلمات أغنية عاطفية في الفيلم «عندما يبدأ الوطن الأم، عبق الطيور والبتولا في قلب روسيا»[42]. وسرعان ما كف فلاديمير عن أحلام طفولته بأن يصبح بحارًا، كما كان والده، أو طيارًا، إذ قرر أن يصبح جاسوسًا، وتخيل نفسه الرائد بيلوف (يوهان فايس): الرجل الوسيم، المناسب، القادر بمفرده على تغيير التاريخ، «ما أذهلني أنه كيف لرجل واحد أن يحقق ما لا تستطيع تحقيقه جيوش برمتها»، وذكر في سنوات لاحقة، وبنفس الطابع الرومانسي الذي سيطر عليه حين كان شابًّا: «إن جاسوسًا واحدًا يمكنه أن يقرر مصير الآلاف من الناس»[43].

وقتها كانت معرفته عن الـ(كي جي بي) أو عن أعماله الداخلية ضئيلة، وقد خدم والد أحد زملائه في المخابرات، وسبق له أن تقاعد.

كان عرض الفيلم جزءًا من جهود التحديث التي بذلها المدير الجديد لـ(كي جي بي)، يوري أندروبوف الذي رأسه عام 1967م، والذي أراد أن يعيد تأسيس صورة هذا الجهاز، لا بصفته قوة شرطة سرية لعينة مسؤولة عن القمع والإرهاب، وإنما بوصفها المدافع عن الأمة السوفييتية الكبيرة. وفي حالة فلاديمير على الأقل، حققت الدعاية أهدافها؛ فإذا كانت الأنشطة الرياضية قد سحبته من الشوارع، فإن الفيلم ألهمه مسيرته؛ ففي اليوم التالي لمشاهدته الجزء الأول من الفيلم، أخبر زميله أنه سيصبح جاسوسًا[44]، وبعد ذلك بقليل- كما تذكر الحكاية- أقدم على عمل جريء وساذج؛ فقد مشى خفية إلى مكتب الـ(كي جي بي) المحلي في لايتني بروسبكت، ليس بعيدًا عن شقته، وتطوع في الخدمة.

كانت مقرات الـ(كي جي بي) في لينينجراد تعرف بالبيت الكبير، لا لكبر حجمه فقط؛ فهناك نكتة ساخرة منتشرة حول تسلطه، تتداولها مدن سوفييتية عديدة مع شيء من الاختلاف: من كاتدرائية القديس إسحاق يمكنك أن ترى كل لينينجراد، ومن البيت الكبير يمكنك أن ترى الطريق بكامله لجزر سولوفيتسكي؛ في الأرخبيلِ في البحر الأبيض الذي يمتد مئات الأميال إلى الشمال، وذي السمعة السيئة عن معسكرات العمل لغولاغ.

حاول فلاديمير ثلاث مرات قبل أن يجد المدخل المناسب إلى البيت الكبير، وإلى الضابط الذي سيقابله. تساهل الضابط مع الصبي، ولكنه قال له على نحو قاطع إن الـ (كي جي بي) (KGB) لا يقبل المتطوعين مطلقًا، ولا يوظف إلا من يعدُّهم جديرين، ممن خدموا في الجيش أو تخرجوا في الجامعة، عندها أصيب فلاديمير بالإحباط، وحاول أن يعرف نوع الدراسة التي من شأنها أن تخدم هذا الطموح الجديد له، وإذ كان الضابط على ما يبدو يتوق إلى التخلص منه، فقد اقترح عليه كلية الحقوق، فهي التي توصله إلى مبتغاه.

كانت دراسة القانون الجامعية مخالفة لرغبات والديه، اللذين اعتقدا أن علاماته ومزاجه تؤهلانه أكثر للدراسة التقنية؛ مثل أكاديمية الطيران المدني، التي كان يرغب في البداية في الانتساب إليها. قد يكون فلاديمير متسرعًا، ولكنه- على الرغم من ذلك- عنيد لا يتزعزع. أصابت الحيرة والديه ومدربيه من هدفه الجديد، فهو لم يخبرهم عن رحلته إلى البيت الكبير، ومن ثم الدافع الحقيقي للدراسة في كلية الحقوق. وعندما وبخه أحد المدربين في ترود بعد أن علم باختياره، مفترضًا أنه سيصبح مدعيًا عامًّا أو ضابط شرطة، رد فلاديمير غاضبًا: «أنا لا أريد أن أكون شرطيًّا!»[45].

جاء قراره بالانتساب إلى الـ (كي جي بي) وسط الاضطراب الدولي عام 1968م؛ فقبل أيام فقط من بدء المدرسة الثانوية في لينينجراد، غزا الاتحاد السوفييتي تشيكوسلوفاكيا لسحق إصلاحات ربيع براغ. بدا فلاديمير متكدرًا من حملة القمع ضد المعارضة، سواء في الداخل أو في الخارج. ومثل كثيرين، كان له اطلاع على الثقافة الغربية الممنوعة؛

كالاستماع إلى البيتلز على التسجيلات المهربة التي يتداولها الأصدقاء؛ «كانت الموسيقى نسمة من الهواء المنعش»، كما قال في وقت لاحق، «وكأنها نافذة على العالم الخارجي»[46]. عزف فلاديمير على الأكورديون مدة من الوقت، ثم على الغيتار الذي أعطاه إياه والده، وتعلم الأغاني الشعبية لفلاديمير فيسوتسكي وغيره من الشعراء في تلك الحقبة.

وإذا كان ينظر إلى أواخر الستينيات في الاتحاد السوفييتي على أنها عصر القمع، ثم الركود، فإن سنوات مراهقته كانت تحمل له الهم أكثر مما حمل جيل والديه، فلم تكن عائلة بوتين من النخبة المرفهة، ولكن مستويات المعيشة ارتفعت بعد الحرب، وأصبحت الأسرة، في حالة أكثر ارتياحًا، حتى إن فلاديمير وماريا كان لديهما هاتف أسود كبير في الشقة، وكان اقتناؤه نادرًا، وكان يجري فلاديمير وأصدقاؤه المكالمات من خلاله[47] في ذلك الوقت، كانا ثريين بما يكفي لشراء منزل ريفي لهما من ثلاث غرف في توسنو، وهي قرية صغيرة خارج لينينجراد، حيث أمضى العديد من سنوات مراهقته مع مجموعة من الأصدقاء، وخارج البيئة الخانقة للشقة المشتركة. وعلَّق على الجدار فوق الطاولة في منزله الريفي صورة مطبوعة لم يميزها صديقه فيكتور بوريسنكو، وحين سأله عنها، أوضح له فلاديمير أنها لجان كارلوفيتش بيرزين، مؤسس فرع المخابرات العسكرية للبلاشفة. وكان قد اعتقل إبان الرعب العظيم في عام 1937م، وأعدم بعد عام على اعتقاله، لكن أعيد له اعتباره بعد وفاته[48].

دخل فلاديمير المدرسة الثانوية في المدرسة رقم 281، وهي أكاديمية علمية نخبوية متخصصة، تؤهل الطلاب لدخول الجامعة. لم يكن طالبًا ذا شعبية كبيرة، وإنما كان طالبًا متهورًا، تستهويه الرياضة، إضافة إلى ولعه الشديد بالدراسة[49]. ومع أن دراسة العلوم قد تضمن له مكانًا في إحدى الجامعات التقنية المرموقة، فإنه تابع العلوم الإنسانية والأدب والتاريخ، وتابع أيضًا دروسًا في اللغة الألمانية، التي درسها في الصف الرابع بتشجيع من فيرا جورفيتش، ولكن هذه المرة كانت أستاذته مينا يوديتسكاي، التي وصفته بأنه متواضع، مع أنه طالب جاد، وكان لها تأثير عميق فيه، وظل يتذكرها لعقود بسبب ولعه الشديد بها.

كانت المدرسة رقم 281 تتسامح- ضمن حدود- مع الانفتاح الفكري والنقاش، إذ كان المدرس ذو الحظوة الشعبية، ميخائيل ديمينكوف، قد وزع ساميزدات (الأدب المحظور) في نسخ كربونية، وأجرت مدرسة التاريخ، تمارا ستيلماكوفا، مناقشات حول كون نيكيتا خروتشوف قد أوفى في النهاية بوعده لبناء دولة شيوعية حقًّا في غضون عشرين سنة[50].

وعلى الرغم من أنه انضم إلى الكومسومول في عام 1967م، فإنه نادرًا ما شارك في أنشطته، إذ وقف نفسه بدلًا من ذلك على الرياضة والواجبات المدرسية، مستبعدًا انشغاله بأشياء أخرى غالبًا ما ترافق سن المراهقة. أما فيرا بريليفا، الفتاة الشابة التي تصغره بعامين، فقد تذكرته حين كان منكبًّا على طاولته التي وضعت في غرفة المعيشة المشتركة بجانب أريكة وبوفيه، وقد التقت به في المنزل الريفي بتوسنو في عام 1969م، وقد سُحر بها، واستذكرت القبلة السريعة منه خلال لعبة (دوران الزجاجة)؛ «شعرت بالحرارة تجتاحني فجأة»؛ لكنها سرعان ما أدركت أن اهتمامه بالفتيات قليل، وهو ما لاحظته أستاذاته[51]، وانتهت علاقتها به حينما قطعت عليه دراسته ذات يوم في الشقة لتسأله هل يتذكر شيئًا ما، فلم تنهِ الجملة عندما قاطعها: «أتذكر فقط الأشياء التي أنا بحاجة إلى أن أتذكرها»، فكانت بمنزلة صفعة لها[52]، وبعد سنوات عديدة تقابلا، وتذكرت «يديه القويتين الصغيرتين»، وشعرت بالحزن من صده لها.

مثل هذه الاجتهادات آتت أُكُلَها، ففي سنواته الأخيرة من التعليم الثانوي- وكان التعليم السوفييتي يتألف من عشر سنوات فقط- حصل على تقدير جيد، ومع أنها ليست درجات مثيرة للإعجاب، فقد كان جيدًا في التاريخ واللغة الألمانية، وأقل من ذلك في مادتي الرياضيات والعلوم. في سنته الأخيرة، لم يلتفت كثيرًا إلى النشاطات الصيفية، بل انكب على امتحانات القبول التي تمكنه من اكتساب مكان متميز في جامعة لينينجراد، إحدى أهم الجامعات المرموقة في الاتحاد السوفييتي. وأعربت فيرا جورفيتش عن شكوكها في أن يتمكن من الحصول على التأهيل اللازم، فلم تكن تعرف السبب الحقيقي من وراء ذلك قطعًا، لكنه أخبرها قائلًا: «سأحل هذه المشكلة بنفسي»[53]. كانت فرص دخوله جامعة لينينجراد ضئيلة

جدًّا، ضمن إمكانية قبول متقدم واحد من بين أربعين متقدمًا. وهناك تكهنات بأنه قُبِل إما بسبب خلفيات عمله الصفي، أو بسبب اليد الصامتة لـ (كي جي بي) التي توجه خلسة مسيرته حتى دون علمه[54]، ومع ذلك، حقق درجات جيدة في امتحاناته، وقُبل في قسم القانون في الجامعة في خريف عام 1970م، كما اقترح عليه ضابط الـ(كي جي بي) قبل عامين.

حين أصبح طالبًا جامعيًّا واظب على دراسته بدقة، وخصص كثيرًا من وقته لمسابقات لعبة الجودو، مقلعًا عن التدخين والشرب حفاظًا على لياقته البدنية، ورفض عروضًا للانضمام إلى فريق الجودو في جامعة لينينجراد، ليبقى وفيًّا لمدربيه في ترود، ثم نال درجة الماجستير في هذه الرياضة في عام 1973م، وشارك في عدد من المدن بالبطولات الإقليمية.

كان لا يزال يعيش في الشقة المشتركة، لكنه جاب معظم الأراضي السوفييتية، وحضر منافسات الجودو في أماكن بعيدة مثل مولدوفا، وفي الصيف قطع الأخشاب في كومي في الشمال، وأمضى أسبوعين في مخيم إعداد الطالب في أبخازيا، ثم في منطقة من الجمهورية السوفييتية في جورجيا. وقد حصل على 800 روبل، أو ما يقارب الـ 600 دولار أمريكي في ذلك الوقت، وتمكن بذلك من شراء معطف ظل يرتديه طوال خمس عشرة سنة قادمة، وصرف ما تبقى في غاغرا؛ المنتجع المشجر والمعشوشب على ساحل البحر الأسود[55]، بعد أن تمكن هو وأصدقاؤه من التسلل إلى عبَّارة متجهة إلى أوديسا، يحملون معهم قليلًا من المال واللحوم المعلبة يقتاتون بها، وقد نام ليلتين في قارب نجاة، يحسد الركاب في كبائنهم، لكن السماء ليلًا فتنته، ويتذكر كيف «بدت النجوم كأنها معلقة هناك»، «قد يكون البحارة اعتادوا على ذلك، ولكن بالنسبة إلي كان اكتشافًا خارقًا للعادة»[56].

في عام 1972م فازت والدته بسيارة بعد شرائها لتذكرة يانصيب فئة 30 كوبك، وكان يمكنها أن تبيع السيارة بـ 3500 روبل، ولكن قدمتها لابنها بكل بساطة، إلا أنها كانت سيارة صغيرة، تشبه الصندوق من نوع زابروزشتس، وتتسع لعدد قليل نسبيًّا من البالغين، من طلاب

الكلية فقط، الذين يقتنون سياراتهم الخاصة في الاتحاد السوفييتي في عقد السبعينيات من القرن العشرين، وبالنسبة إلى فلاديمير كانت رمزًا للمكانة، وتحولًا جديدًا.

كان يقود سيارته في كل مكان، ويذهب بها إلى مبارياته، ينقل بها أصدقاءه فقط من أجل قيادتها، وكان سائقًا شرسًا ومتهورًا، حتى إنه ضرب ذات مرة رجلًا يتمايل في الطريق، وادعى أن الرجل كان يحاول الانتحار، وفي بعض الروايات أنه طارده بعد أن هرب منه مسافة بعيدة، لكن فلاديمير نفى ذلك، مصرًّا: «أنا لست وحشًا»[57].

أمضى أربع سنوات في الجامعة قبل أن يتقرب منه رجل غامض، علم في وقت لاحق أنه من قسم الـ(كي جي بي) الذي يشرف على الجامعات. في ذلك الوقت كان كل شيء بين يديه، إنما لم تعد تشغله طموحات المراهقة، وعمل في صيف إحدى السنوات مع شعبة الأمن الجنائي التابعة لوزارة النقل المحلية، ليشارك في تحقيقٍ في حادث تحطم طائرة، وكان يبدو وكأنه سيصبح ضابطًا مع المدعي العام المحلي، تمامًا كما سبق للمدرب أن حذره مما سيحدث معه. وأصبح القانون بالنسبة إلى فلاديمير مثل فنون القتال؛ إذ يفرض القواعد والنظام، وهو ما يحترمه أكثر من أي إيديولوجية. وقد ادعى أنه لم يعمل أو حتى يسمع عن الـ(كي جي بي) حين كان طالبًا، مع أن التعاون مع المخابرات كان شائعًا بين طلبة الجامعات.

وهكذا عندما حان وقت تجنيده أخيرًا في عام 1974م، خلال سنته الرابعة، كان ذلك مفاجأة له؛ فالرجل الذي هاتفه لم يعرِّف بنفسه، وقال له: «أريد أن أتحدث معك بخصوص عملك المستقبلي»، رافضًا التحدث معه بالتفصيل. لمس فلاديمير أهمية اللقاء، واتفقا على الاجتماع في وقت لاحق في صالة الكلية في الجامعة، وقد وصل فلاديمير في الوقت المحدد، وانتظره عشرين دقيقة، وكان يشعر بالغضب من هذا الانتظار؛ إذ كان يخشى من أنه وقع ضحية مزحة، ثم جاء الرجل لاهثًا معتذرًا عن التأخر، وهذا ما أعجب الشاب كثيرًا[58].

خضع فلاديمير لفحص للتحقق من خلفيته، وتضمنت آخر خطوة في ذلك الفحص لقاء مع والده، وفي يناير/ كانون الثاني عام 1975م زار ضابط في منتصف العمر، يدعى

ديمتري غانتسيروف، فلاديمير سبيريدونوفيتش. لم يكن بوتين الكبير طويل القامة، كما يعتقد غانتسيروف، كان رجلًا بسيطًا وصادقًا، ومجدًّا، وكان فخورًا بدخول ابنه إلى الجامعة، والتحاقه اليوم بالأجهزة الأمنية، وقد عرف المسؤولية وصعوبة المهام الملقاة على عاتق ابنه، ثم تحدث بتشوق وتوسل تقريبًا لهذا الغريب، وقال له مستخدمًا صيغة التصغير لاسم ابنه:

«فولوديا هو كل شيء بالنسبة إلينا، ترتبط كل آمالنا به. فقد قُتل- كما تعلم- اثنان من أبنائنا، وبعد الحرب قررنا أن يكون لدينا هذا الطفل، والآن نحن نعيش حياة فولوديا فقط؛ فقد عشنا حياتنا نحن بالفعل»[59].

على الرغم من أن فولودياه يجب أن يعي ما تفعله الـ(كي جي بي)، فإن الشاب لم يكن متكدرًا من تاريخها في الحفاظ على الأمن ضد أعداء الدولة، سواء في الداخل أو في الخارج، بل على العكس من ذلك؛ فقد رأى أن من واجب المواطن السوفييتي السليم التعاون مع الـ(كي جي بي)؛ لا من أجل المال، وإنما لأمن الدولة، وقال: «إن تعاون المواطنين العاديين كان أداة مهمة لعمل الدولة القابلة للحياة»[60]، قد يكون هناك تجاوزات، وهو يفهمها، ولكن عبادة شخصية ستالين كانت قد فُكِّكت بعد وقت قصير من ولادته، وأُطلق أسر ضحايا الإرهاب والرعب منه تدريجيًّا من معسكرات العمل من الغولاغ، ولم يول ذلك كثيرًا من التفكير.

وبقدر ما كان يشعر بالقلق، فإن جرائم الماضي التي قتلت أو دمرت الملايين ظلت بالنسبة إليه شيئًا من التاريخ القديم، ولم يستغرب حدوثها. وبالنسبة إلى كثير من الروس، حتى أولئك الذين عانوا من طغيانه، ظل ستالين بالنسبة إليهم أبا الأمة المبجل، الذي قاد البلاد إلى النصر على النازيين. والجوانب المظلمة من حكمه قمعت، إما بالخوف والتواطؤ، أو الشعور بالذنب، تاركة إرثًا متناقضًا وخلافيًّا سيعاني منه المجتمع السوفييتي على مدى عقود. وقد أشار في وقت لاحق إلى أنه نفسه كان «نتاجًا ناجحًا لتربية وطنية للإنسان السوفييتي»[61].